وفيها في الثَّالث والعشرين من شَوَّال توفي الشَّمْس محمد بن عبد العزيز بن خلدون الشَّاهد الكاتب، ولجدِّه ذِكْرٌ في «تاريخ دمشق»، رحمه الله.

وفيها بعد صلاة الصُّبْح من يوم السبت الخامس والعشرين من شوَّال ولد لي مولودٌ ذكر، وأُمه قُرَشية من بني عبد الدَّار بن قُصَي، فأسميته أحمد، وكنيتُه أبا الهُدَى، جعله الله بفضله هادياً مهدياً، وجاءني بعد خمس مرضات، فدعوت الله أن يرزقني ولداً ذكراً.

وجاءنا الخبر من حلب بوفاة الشَّريف المرتضى؛ نقيب الأشراف بها، رحمه الله.

و[1]من مِصْر بموت أبي العبَّاس بن تاميت[2] المَغْربي[1].

ثم دخلت سنةُ أربعٍ وخمسين وست مئة

ففيها توفي الشَّيخ عمادُ الدِّين عبدُ الله بنُ الحسن بن الحسن، المعروف بابن النَّحَّاس[3] بمسكنه بالجبل ـ رحمه الله ـ وكان زاهداً، خَيِّراً، من كبار النَّاس ونُبَلائهم، وكان في أُذُنيه صَمَمٌ، فانتفع بذلك، وخَلَص من استماع أحاديث النَّاس، فانقطع للعبادة معتكفاً بمسجده، تالياً في مُصْحفه، وكانت وفاته يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من صَفَر، رحمه الله تعالى.

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في (ب).

(٢) ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» (وفيات ٥٩٥هـ)، ضمن ترجمة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، صاحب المغرب، وعنه نقل ترجمته ابن دقماق في «نزهة الأنام»: ٢٢٥ ـ ٢٢٦ دون أن يسميه.

(٣) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات ٦٥٤هـ). ذيل مرآة الزمان: ١/ ٢٤، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩، العبر للذهبي: ٥/ ٢١٧ ـ ٢١٨، عيون التواريخ: ٢٠/ ١٠٠، الوافي بالوفيات: ١٧/ ١٣٢، البداية والنهاية (وفيات ٦٥٤هـ)، نزهة الأنام: ٢٢٩، النجوم الزاهرة: ٧/ ٣٥، ٤٠، شذرات الذهب: ٥/ ٢٦٥.

وفيها في ربيع الآخر توفي الزَّكي بن الفُوَيرة، أحد المعدَّلين بدمشق يوم الجمعة.

وفي غده يوم السبت توفي الشَّمْسُ عبدُ الرحمن بن نوح بن محمد بن إبراهيم[١] المقدسي، الفقيه الشَّافعي، مدرِّس الرَّواحية بعد شيخه التقي بن الصَّلاح، ودُفِنَ في أول مقابر الصُّوفية[٢] في ثامن الشهر المذكور[٢]، وبلغني أنه كان له جنازةٌ حَفْلة، وكنت غائباً عنها، رحمه الله.

وكَثُرَ مَوتُ الفُجَاءة في تلك الأيام، فمات بها جماعة، منهم مؤذِّن مدرستنا العادلية الشمس الخُوارَزْمي، وغيره.

وفيها توفي صاحِبُنا الأمير مُظَفَّر الدِّين إبراهيم[٣] بن الأمير عِزِّ الدِّين أَيْبَك المُعَظَّمي؛ أستاذ دار صاحب صَرْخَد، رحمه الله.

وتوفي أبوه قبله بالدِّيار المِصْرية[٤]، ثم نُقِلَ إلى تُرْبته في القُبَّة التي بناها بمدرسته[٥] التي على طريق الميدان الأخضر الكبير الشَّمالي، وله مدرسةٌ أخرى داخل دمشق بالكشك، تعرف قديماً بدار ابنِ منقذ[٦].

---

(١) له ترجمة في ذيل مرآة الزمان: ١/ ١٩، العبر للذهبي: ٥/ ٢١٨، الوافي بالوفيات: ١٨/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣، طبقات الشافعية للسبكي: ٨/ ١٨٨، البداية والنهاية (وفيات ٦٥٤هـ)، النجوم الزاهرة: ٧/ ٤٠، شذرات الذهب: ٥/ ٢٦٥.

(٢ ـ ٢) ما بينهما من (ك) و(ع) و(س).

(٣) له ترجمة في ذيل مرآة الزمان: ١/ ١٥ ـ ١٧، الوافي بالوفيات: ٥/ ٣٣٠، البداية والنهاية (وفيات ٦٥٤هـ)، المقفى للمقريزي: ١/ ١١٢.

(٤) توفي في أوائل جمادى الأولى سنة (٦٤٦هـ)، انظر ترجمته في وفيات الأعيان: ٣/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦، ومرآة الزمان (حوادث ٦٤٥هـ)، وذيل مرآة الزمان: ١/ ١٥ ـ ١٦، وقد سلفت أخباره في حوادث هذا الكتاب.

(٥) هي المدرسة العزِّية البرانية.

(٦) هي المدرسة العزية الجوانية.

وفيها ليلة السَّادس عشر من جُمادى الآخرة خَسَفَ القمرُ أول الليل، فكان شديدَ الحُمْرة، ثم انجلى، وكَسَفَتِ الشمسُ في غده؛ احمَرَّتْ وقت طُلوعها
١٩٠ وقريب غروبها، وبقيت كذلك أياماً متغيِّرة اللَّوْن، ضعيفة النور، والله تعالى على كلِّ شيء قدير. واتَّضَحَ بذلك ما صوَّره الشَّافعيُّ ـ رحمه الله ـ من اجتماع الكسوف والخسوف[1]، واستبعده أهل النجامة.

وجاء إلى دمشق كُتُبٌ من المدينة ـ على ساكنها السَّلام ـ بخروج نارٍ عندهم في خامس جُمادى الآخرة، وكتبت الكتب في خامس رجب والنَّار بحالها، ووصلتِ الكتبُ إلينا في عاشر شعبان ونحوه.

وفي أول يوم من رمضان شَنَقَ العِزُّ الخِلاطي نفسه في بيته بالمدرسة العادلية، أعاذنا الله تعالى من البلاء.

بسم الله الرحمن الرحيم، ورد إلى مدينة دمشق ـ حرسها الله تعالى ـ في أوائل شعبان من سنة أربعٍ وخمسين وست مئة كُتُبٌ من مدينة رسول الله ﷺ فيها شرحُ أمرٍ عظيمٍ حَدَثَ بها، فيه تصديق لما في «الصَّحيحين» من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم السَّاعة حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببُصْرَى»[2].

فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهَدَها بالمدينة أنه بلغه أنَّه كُتِبَ بتيماء على ضوئها الكتب.

قال: وكنا في بيوتنا تلك الليالي، وكأنَّ في دار كلِّ واحدٍ سِرَاجاً، ولم يكن له ضوءٌ لفح على عُظْمها، إنما كانت آية من آيات الله تعالى.

وهذه صورة ما وقفتُ عليه من الكتب الواردة، منها: لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جُمادى الآخرة سنة أربعٍ وخمسين وست مئة، ظَهَرَ بالمدينة دويٌّ

(١) في النسخ الخطية: والعيد، والمثبت من «ذيل مرآة الزمان»: ١/ ١١، وهو ينقل عن أبي شامة.
(٢) أخرجه البخاري (٧١١٨)، ومسلم (٢٩٠٢).

عظيم، ثم زلزلةٌ عظيمةٌ رَجَفَتْ منها المدينة والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب ساعةً بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور، ثم ظَهَرَتْ نارٌ عظيمة في الحَرَّة قريباً من قُرَيظة، نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا، وهي نار عظيمة، إشْعالُها أكثر من ثلاث مناثر، وقد سالت أودية منها بالنَّار إلى وادي شظا مسيل الماء، وقد سدَّت مسيل شظا، وما عاد يسيل، والله لقد طلعنا جماعة نبصرها، فإذا الجبال تسيل نيراناً وقد سدَّتِ الحَرَّةُ طريقَ الحاجِّ العراقي، فسارت إلى أن وَصَلَتْ إلى الحرة، فوقفت بعد أن أشفقنا أن تجيء إلينا، وَرَجَعَتْ تسير في الشرق؛ تخرج من وَسْطها مهود وجبالُ نيرانٍ تأكل الحجارة، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز، فقال عَزَّ من قائل: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾[1] وقد أكلتِ الأرض، وقد كتبتُ هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربعٍ وخمسين وست مئة، والنَّار في زيادةٍ ما تغيَّرت، وقد عادَتْ إلى الحِرار في قُريظة طريق العَيْر الحاج إلى بحيرة العراقي كلها نيران تشتعل، نُبْصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعل الحاجّ، وأما أُمُّ النَّار الكبيرة فهي جبال نيران حُمْر، والأم الكبيرة التي سالتِ النيران منها من عند قريظة، وقد زادت، وما عاد النَّاس يرَوْن أي شيء يتم بعد ذلك، والله يجعل العاقبة إلى خيرٍ، وما أقدر أصِفُ هذه النَّار.

وفي كتابٍ آخر: ظَهَرَ في أوَّل جُمُعةٍ من جمادى الآخرة سنة أربعٍ وخمسين وست مئة في شرقيّ المدينة نارٌ عظيمة، بينها وبين المدينة نصفُ يومٍ، انفجرت من الأرض، وسال منها وادٍ من نار حتى حاذى جَبَلَ أُحُد، ثم وقف وعادت إلى السَّاعة، ولا ندري ماذا تفعل، ووقت ما ظَهَرَتْ دخل أهلُ المدينة إلى نبيِّهم ١٩١
ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ مستغفرين تائبين إلى ربهم، وهذه دلائل القيامة.

وفي كتابٍ آخر: لما كان يوم الاثنين مستهل جُمادى الآخرة سنة أربعٍ

(١) سورة المرسلات، الآية: ٣٢ و ٣٣.

وخمسين وست مئة وقَعَ صوتٌ يشبه الرَّعد البعيد تارةً وتارة، وأقام على هذه الحال يومين، فلما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور تعقب الصوت الذي كُنَّا نسمعه زلازل، فتقيم على هذه الحالة ثلاثة أيام، يقع في اليوم والليلة أربع عشرة زلزلة، فلما كان في يوم الجمعة خامس الشَّهْر المذكور انبجَسَتِ الأرض من الحَرَّة بنارٍ عظيمة يكون قَدْرُها مثلَ مسجدِ رسولِ الله ﷺ، وهي برأي العين من المدينة، فشاهدها، وهي ترمي بشرر كالقَصْر كما قال الله تعالى، وهي بموضع يقال له أجلين، وقد سال من هذه النَّار وادٍ يكون مقداره أربع فراسخ، وعَرْضُهُ أربعة أميال، وعمقه قامةٌ ونصف، وهي تجري على وجه الأرض، ويخرج منها أمهاد وجبال صِغار تسير على الأرض، وهو صَخْرٌ يذوب حتى يبقى مثل الآنُك، فإذا جَمَدَ صار أسود، وقبل الجمود لونه أحمر. وقد حَصَلَ بطريق هذه النار إقلاعٌ عن المعاصي، والتقرُّب إلى الله تعالى بالطَّاعات، وخرج أميرُ المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها.

ومن كتاب شمس الدِّين سِنان بن عبد الوهَّاب بن نُمَيْلة الحسيني، قاضي المدينة إلى بعض أصحابه: لما كان ليلةُ الأربعاء ثالث شهر جُمادى الآخرة حَدَثَ بالمدينة في الثلث الأخير من الليل زَلْزَلَةٌ عظيمة أشفقنا منها، وباتت باقي تلك الليلة تزلزل كلَّ يوم وليلة قدر عشر نوبات، والله لقد زلزلت مرَّةً ونحن حول حُجْرة النبي ﷺ اضطرب لها المنبر إلى أن أوجبنا منه صوتاً للحديد الذي فيه، واضطربت قناديلُ الحَرَم الشَّريف، وتمت الزَّلْزلة إلى يوم الجمعة ضحًى، ولها دويٌّ مِثْلُ دويِّ الرَّعد القاصف، ثم طَلَعَ يوم الجمعة في طريق العبرة في رأس أجلين نارٌ عظيمة مثل المدينة العظيمة، وما بانت لنا إلا ليلة السبت، وأشفقنا منها، وخفنا خوفاً عظيماً، وطلعتُ إلى الأمير، وكلَّمته، وقلتُ له: قد أحاط بنا العذاب، ارجع إلى الله. فأعتقَ كلَّ مماليكه، ورَدَّ على جماعةٍ أموالهم، فلما فعل هذا، قلتُ له: اهبِطِ السَّاعة معنا إلى النبيِّ ﷺ. فَهَبَطَ، وبتنَا ليلة السبت والناس جميعهم، والنِّسوان وأولادهم، وما بقي أحدٌ لا في النخيل

ولا في المدينة إلا عند النبي ﷺ، وأشفقنا منها، وظَهَرَ ضوءها إلى أن أُبْصِرَتْ من مكة ومن الفلاة جميعها، ثم سالَ منها نهرٌ من نار، وأخذ في وادي أجلين، وسدَّ الطَّريق، ثم طلع إلى بحرة الحاجّ، وهو بحر نار يجري، وفوقه حرَّة تسير إلى أن قَطَعَتِ الوادي وادي الشَّظاة، وما عاد يجيء في الوادي سَيْلٌ قط، لأنها حَرَّة تجيء قامتين وثلث علوها. وبالله يا أخي، إنَّ عيشتنا اليوم مكدَّرة، والمدينة قد تابَ جميعُ أهلها، ولا بقي تسمع فيها رَباب ولا دُفّ ولا شُرْب. وتمت تسير إلى أن سَدَّت بعضَ طريق الحاج وبعض البحرة بحرة الحجاج، وجاء في الوادي إلينا منها قتير، وخفنا أنها تجيئنا، واجتمعَ النَّاسُ، ودخلوا على النبيِّ ﷺ، وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة. وأما قتيرها الذي مما يلينا فقط طَفِئ بقُدْرة الله سبحانه وتعالى، وإنها إلى السَّاعة ما نقصت، إلا ترمي مثل الجمال حجارةً من نار، ولها دويٌّ ما يدعنا نرقد ولا نأكل ولا نشرب، وما أقدر أصف لك عِظَمها، ولا ما فيها من الأهوال، وأبصرها أهلُ يَنْبُع، وندبوا قاضيهم ابن أسعد، وجاؤوا غداً إليها، وما صح يقدر يصفُها من عِظَمها. وكتب الكتاب يوم خامس رجب، وهي على حالها، والنَّاس منها خائفون، والشمس ١٩٢
والقمر من يوم طَلَعَتْ ما يَطْلُعان إلا كاسفين، نسأل الله العافية.

قلت[1]: بان عندنا بدمشق أثَر الكُسوف من ضَعْف نورهما على الحيطان، وكُنَّا حيارى من ذلك أيش هو إلى أن جاءنا هذا الخبر عن هذه النار[1].

ومن كتابٍ آخر من بعض بني القاشاني بالمدينة، يقول فيه: وصل إلينا في جُمادى الآخرة نجَّابة من العراق، وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غَرَقٌ عظيم حتى دخل الماءُ من أسوار بغداد إلى البلد، وغَرِقَ كثيرٌ من البلد، ودخل الماءُ دار الخليفة وَسْط البلد، وانهدمَتْ دارُ الوزير وثلاث مئة وثمانون داراً، وانهدم مخزن الخليفة، وهلك من خزانة السِّلاح شيءٌ كثير تَلِفَ كلُّه، وأشرفَ النَّاسُ على الهلاك، وعادت السفن تدخل إلى وسط البلد، وتتخرق أزِقَّة بغداد.

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في (ب).

قال: وأما نحن، فإنَّه جرى عندنا أمرٌ عظيم؛ لما كانت بتاريخ ليلة الأربعاء الثَّالث من جُمادى الآخرة، ومن قبلها بيومين عادَ النَّاس يسمعون صوتاً مثل الرَّعد ساعةً بعد ساعة، وما في السماء غَيْمٌ حتى نقول إنه منه، يومين إلى ليلة الأربعاء، ثم ظَهَرَ الصَّوتُ حتى سَمِعَهُ النَّاسُ،وتزلزلت الأرضُ، وَرَجَفَتْ بنا رجفة لها صوتٌ كدويِّ الرعد، فانزعج لها النَّاسُ كلُّهم، وانتبهوا من مراقدهم، وضجَّ النَّاس بالاستغفار إلى الله تعالى، وفَزِعُوا إلى المسجد، وصلُّوا فيه، ودامتْ تَرْجُفُ بالنَّاسِ ساعةً بعد ساعة إلى الصُّبْح، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها، ويوم الخميس وليلة الجمعة، وصُبْح يوم الجمعة الخامس من الشَّهْر ارتجَّتِ الأرضُ رجَّة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضُه ببعض، وسُمِعَ لسقفِ المسجد صريرٌ عظيم، وأشفق النَّاسُ من ذنوبهم، وسكنت الزلزلة بعد صُبْح يوم الجمعة إلى قبل الظهر، ثم ظَهَرَتْ عندنا بالحرَّة وراء قُرَيْظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصُّبْح إلى الظُّهْر نارٌ عظيمة تنفجر من الأرض، فارتاع النَّاس لها روعةً عظيمة، ثم ظَهَرَ لها دخانٌ عظيم في السماء ينعقد حتى يبقى كالسَّحاب الأبيض متصل إلى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة، ثم ظَهَرَتْ لها ألسنٌ تصعد في الهواء إلى السَّماء حمراء كأنَّها العَلَقة، وعَظُمَتْ، وَفَزِعَ النَّاس إلى المسجد النَّبوي وإلى الحجرة الشريفة، واستجار النَّاسُ بها، وأحاطوا بالحجرة، وكشفوا رؤوسهم، وأقروا بذنوبهم، وابتهلوا إلى الله سبحانه، واستجاروا بنبيه ﷺ، وأتى النَّاسُ إلى المسجد من كلِّ فجٍّ ومن النخل، وخَرَجَ النِّساء من البيوتِ والصِّبيان، واجتمعوا كلهم، وأخلصوا لله، وغطَّى حُمْرة النَّار السماء كلها حتى بقي النَّاسُ في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعَلَقة، وأيقن النَّاس بالهلاك أو العذاب، وباتَ الناسُ تلك الليلة بين مُصَلٍّ، وتالٍ للقرآن، وراكعٍ وساجد، وداعٍ إلى الله، ومتنصِّلٍ من ذنبه، ومستغفرٍ وتائبٍ، ولزمت مكانها، وتناقص تضاعفها ذلك ولهبها، وصَعِدَ

الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه، فَطَرَحَ المَكْس، وأعتق مماليكه كلهم وعبيده، ورَدَّ علينا كل مالنا تحتَ يده وعلى غيرنا. وبقيت تلك النَّار على حالتها تلتهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم كالمدينة عرضاً، يخرج منها حصى يصعد في السماء، ويهوي فيها، ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمى كالرَّعد، وبقيتْ كذلك أياماً، ثم سالتْ سيلاً ناراً في وادي أجلين تنحدر مع الوادي إلى الشظاة حتى لحق سيلانها بالبحرة بحرة الحاج، والحجارة معها تتحرك وتسير حتى كادت تقارب حَرَّة العريض، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عاد يخرج من النار، ترمي بحجارة خلفها وأمامها حتى بَنَتْ لها جبلين خَلْفها وأمامها، وما بقي يخرج منها من بين الجبلين لسان لها أياماً. ثم إنها عَظُمَتِ الآن، وسناها إلى الآن، وهي تتقد كأعظم ما يكون، ولها كلَّ يومٍ صوتٌ عظيم من آخر الليل إلى ضحوة، ولها عجائب ما أقدر أشرحها لك على الكمال، وإنما هذا منها طَرَف كبير يكفي، والشَّمسُ والقمر كأنهما منكسفان إلى الآن، وكتبتُ هذا الكتاب ١٩٣
ولها شهرٌ، وهي في مكانها ما تتقدَّم ولا تتأخر، حتى قال فيها بعضُهم أبياتاً، منها:

يا كاشِفَ الضُّرِّ صَفْحاً عن جرائمنا ... لقد أحاطَتْ بنا يا ربّ بَأْسَاءُ
نشكو إليك خُطُوباً لا نُطيقُ لها ... حَمْلاً ونحن بها حَقّاً أحقَّاءُ
زلازلاً تخشعُ الشُّمُّ[1] الصّلابُ لها ... وكيف يقوى على الزِّلزالِ شَمَّاءُ
أقام سبعاً ترجّ الأرض فانْصَدَعَتْ ... عن منظرٍ منه عينُ الشَّمْسِ عَشْواءُ
بحرٌ من النَّار تجري فوقه سُفُنٌ ... من الهِضابِ لها في الأرضِ إرساءُ
كأنَّما[2] فوقه الأجبال طافيةً ... موجٌ علاه لفَرطِ الهَيْجِ غشَّاءُ[2]
ترمي لها شَرَراً كالقَصْرِ طائشةً ... كأنَّها دِيْمَةٌ تَنْصَبُّ هَطْلاءُ

(١) في النسخ ما عدا (ب): الصم، والمثبت منها.
(٢ ـ ٢) ما بينهما ليس في (ك) و(ع) و(س).

تَنْشَقُّ منها قلوبُ الصَّخْرِ إن زَفَرَتْ رُعْباً وتَرْعُدُ مثل السعْف أضواءُ
منها تكاثَفَ في الجوِّ الدُّخانُ إلى أنْ عادَتِ الشَّمْسُ منه وَهْي دَهْماءُ
قد أَثَّرَتْ سُعْفةٌ في البَدْرِ لَفْحَتُها قليلة التمِّ بعد النُّورِ لَيْلاءُ
تحدِّثُ النَّيِّراتِ السَّبْعِ أَلْسُنُها بما يلاقي بها تحتَ الثَّرى الماءُ
وقد أحاطَ لظاها بالبروجِ إلى أنْ كاد يُلْحِقُهَا بالأرض إهواءُ
فيا لها آيةً من معجزاتِ رسو لِ الله يَعْقِلُها القومُ الألبَّاءُ
فباسْمِكَ الأعظم المكنون إنْ عَظُمَتْ منَّا الذُّنوبُ وساء القَلْبَ أسْواءُ
فاسْمَحْ وَهَبْ وتَفَضَّلْ وامْحُ واعْفُ وَجُدْ واصْفَحْ فكلٌّ لفَرْطِ الجَهْلِ خَطَّاءُ
فقومُ يونسَ لمَّا آمنوا كُشِفَ الـ ـعذابُ عنهمْ وعَمَّ القَوْمَ نَعْماءُ
ونحن أمةُ هذا المُصْطَفَى ولنا منهُ إلى عَفْوك المرجوِّ دَعَّاءُ
هذا الرَّسولُ الذي لولاه ما سُلِكَتْ مَحَجَّةٌ في سبيلِ اللهِ بيضاءُ
فارْحَمْ وَصَلِّ على المختارِ ما خَطَبَتْ على عُلا مِنْبَرِ الأوراق وَرْقَاءُ

ونظم[1] بعضُهم في هذه النَّار وغَرَقِ بغداد بيتين، فقال:

سُبْحان مَنْ أصبحتْ مَشِيْئَتُهُ جاريةً في الورى بمِقْدارِ
أَغْرَقَ بغدادَ بالمياه كما أَحْرَقَ أرضَ الحِجاز بالنَّارِ

فقلتُ: كان ينبغي أن ينبِّه على أنَّ الأمرين في سنةٍ واحدة، وإلا فالإغراق والإحراق يقعان كثيراً، فالصَّواب أن يقال:

في سنةٍ أَغْرَقَ العِراقَ وقد أَحْرَقَ أرضَ الحجازِ بالنَّارِ[1]

١٩٤ وفيها ليلة الجمعة، أول ليلة من رمضان هذه السنة ـ وهي سنةُ أربعٍ وخمسين وست مئة ـ احترق مسجدُ المدينة على ساكِنِهِ السَّلام: ابتدأ حريقه من زاويته الغربية

(١ ـ ١) ما بينهما جاء في الأصل و(ب) عقب خبر حريق المسجد النبوي، والمثبت من (ك) و(ع) و(س)، وهو الأليق بسياق الخبر.

من الشَّمال، وكان دخل أحدُ القَوَمة إلى خزانةٍ ثَمَّ ومعه نارٌ، فَعَلِقَتْ في آلاتٍ ثَمَّ، واتصلت بالسَّقف بسرعةٍ، ثُمَّ دبَّتْ في السقوف آخذةً قِبْلةً، فأعجلتِ النَّاسَ عن قطعها، فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوفُ المسجد أجمع، ووقع بعض أساطينه وذاب رصاصُها، وكلُّ ذلك قبل أن ينام النَّاس، واحترق سقف الحجرة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ ووقع ما وقع منه في الحُجْرة، وبقي على حاله لما شرع في عمارة سَقْفه وسقْفِ المسجد، وكان ذلك ليلة الجمعة، وأصبح النَّاس، فعزلوا موضعاً للصَّلاة، وعُدّ ما وَقَع من تلك النَّار الخارجة وحريق المسجد من جُمْلة الآيات، وكأنَّها كانت منذرةً عما يعقبها في السنة الآتية من الكائنات، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى[1].

ونُظم[2] في حريق مسجدِ رسول الله ﷺ:

لم يحترقْ حَرَمُ النَّبيِّ لحادثٍ ... يُخشى عليه ولا دهاه العَارُ
لكنَّما أيدي الرَّوافض لامَسَتْ ... ذاك الجَنَابَ فَطَهَّرَتْهُ النَّارُ[2]

وقلتُ أيضاً فبيَّنْتُ السَّنَة:

بعد ستٍّ من المئين وخمسيـ ... ـنَ لدى أربعٍ جرى في العامِ
نار أَرْضِ الحجاز مَعْ حَرْقِ المسـ ... ـجدِ مَعْه غريق دارِ السَّلامِ
ثُمَّ أَخْذِ التَّتارِ بغدادَ في أوَّ ... لِ عامٍ من بعدِ ذاك العامِ
لم يُعَنْ أهلُها وللكُفْرِ أعوا ... نٌ عليهمْ يا ضيعةَ الإسلامِ
وانقَضَتْ دولةُ الخلافةِ منها ... صارَ مُسْتَعْصِمٌ بغير اعتصامِ
رَبِّ[3] سَلِّمْ وصُنْ وعافِ بقايا ... المُدْن يا ذا الجلالِ والإكرامِ
فحناناً على الحجازِ ومِصْرٍ ... وسلاماً على بلادِ الشَّامِ[3]

(١) انظر ص ١٢٤ من هذا الجزء.

(٢ ـ ٢) ما بينهما ليس في الأصل و(ب)، والمثبت من بقية النسخ.

(٣ ـ ٣) ما بينهما ليس في (ب).

تمام سنة أربع وخمسين وست مئة

في ذي القعدة توفي مجير الدِّين يعقوب بن الملك العادل[١] أبي بكر بن أيوب في يوم الأربعاء سادسَ عشر الشهر المذكور، ودفن بمقبرة والده بالمدرسة العادلية.

وفي الخامس والعشرين من ذي القعدة توفي معين الدِّين محمد بن عبد الله ابن عَصْرون، وكان شاباً حسناً، فاضلاً متميزاً، أحد من اشتغل عليَّ، رحمه الله.

ومات قبله بأيام ابنُ عمِّه مجير الدِّين بن محيي الدِّين بن عَصْرون، وكان أيضاً شاباً حسناً، رحمه الله تعالى.

وفيه أيضاً توفي البَدْر بن التِّنِّبي[٢]، وكان رجلاً حسناً، من أولاد الأكابر بدمشق، رحمه الله.

وفي يوم الجمعة ثالث ذي الحِجَّة توفي العِزُّ عبد العزيز بن أبي طالب بن عبد الغفار التَّغْلبي يعرف بابن الحبوبي، وجدُّه لأمه هو القاضي جمالُ الدِّين أبو القاسم الأنصاري الحَرَسْتاني، رحمه الله.

وفي يوم الخميس تاسع ذي الحِجَّة ـ وهو يوم عَرَفة ـ توفي شمسُ الدِّين محمد بن المبارك السنجاري؛ صاحبنا، ودفن بمقابر الصوفية، وكان شيخاً فاضلاً، سمع معي كثيراً من كتب الحديث وغيرها لما أسمعتُ ولدي محمداً ـ رحمه الله ـ واسمه نعمة في طباقٍ كثيرة. ثم سافر إلى مِصْر، وحجَّ، وجاور سنين كثيرة بالحرمين، ثم قَدِمَ دمشق، فأقام بها نحو عامين وتوفي، رحمه الله تعالى. ١٩٥

(١) له ترجمة في العبر للذهبي: ٥/٢١٩ ـ ٢٢٠، ذيل مرآة الزمان: ١/٣٧، عيون التواريخ: ٢٠/١٠٢ ـ ١٠٣، البداية والنهاية (وفيات ٦٥٤هـ)، نزهة الأنام: ٢٢٩ شفاء القلوب: ٣٢٦، الدارس: ٢/٢٦٨، شذرات الذهب: ٥/٢٦٦، ترويح القلوب: ٤٩.

(٢) سلف ذكر وفاة والده إبراهيم ص٢٤٨ من الجزء الأول.

وفيها ليلة الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي الحِجَّة توفي الشيخُ شمسُ الدِّين يوسف سِبْط الإمام أبي الفرج بن الجوزي[1] الواعظ ـ رحمه الله ـ بمنزله بالجبل، ودفن هناك، وحَضَرَ جِنَازَتَهُ خَلْقٌ عظيم؛ سُلْطان البلد فمن دونه، وكنتُ مريضاً حينئذٍ، فلم يُقَدَّر لي حضورُها. ورأيت موته مناماً تلك الليلة قبل أن أسمع به يقظةً إلا أني رأيته في حالةٍ منكرة، ورآه غيري أيضاً كذلك، نسأل الله العافية.

ودرَّس بالمدرسة الشِّبْلية مُدَّة، وكان مسكنه يومئذٍ بالتربة البَذْرية الحَسَنية قُبالتها على ثورا، وكان فاضلاً، عالماً، ظريفاً، منقطعاً، منكراً على أرباب الدُّول ما هم عليه من المنكرات، متواضعاً؛ لَزِمَ في آخر عُمُره سنين كثيرة ركوبَ الحمار طالعاً عليه إلى منزله بالجبل، ونازلاً عليه إلى مدرسته العِزِّية بالشَّرف الشَّمالي، وإلى غير ذلك، مقتصداً في لباسه، مواظباً على المطالعة والاشتغال، والجمع والتصنيف، منصفاً لأهل العلم والفَضْل، مبايناً لأولي الجبرية والجهل، وتأتي الملوك وأرباب الدُّول إليه زائرين وقاصدين، ورُبِّيَ طول زمانه في جاهٍ عريض عند الملوك والعوام نحو خمسين سنة، وكان مجلس وعظه مُطْرباً، وصوتُه فيما يورده فيه حسناً طيباً، رحمه الله، ورضي عنه.

---

(١) له ترجمة في وفيات الأعيان: ٣/ ١٤٢، ذيل مرآة الزمان: ١/ ٣٩ ـ ٤٣، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧، ميزان الاعتدال: ٤/ ٤٧١، العبر للذهبي: ٥/ ٢٢٠، عيون التواريخ: ٢٠/ ١٠٣ ـ ١٠٤، فوات الوفيات: ٤/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧، الوافي بالوفيات: ٢٩/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧، البداية والنهاية (وفيات ٦٥٤هـ)، الجواهر المضية: ٣/ ٦٣٣ ـ ٦٣٥، نزهة الأنام: ٢٢٩، لسان الميزان: ٨/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦، النجوم الزاهرة: ٧/ ٣٩، الدارس: ١/ ٤٧٨ ـ ٤٨٠، شذرات الذهب: ٥/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧، الفوائد البهية: ٢٣٠ ـ ٢٣١.

قال إبراهيم عفا الله عنه: وقد يسَّر الله تعالى لي تحقيق حوادث السنوات الأخيرة (ما بين سنة ٥٠٠ هـ حتى ٦٥٤هـ) من كتابه «مرآة الزمان»، وقدمت له بمقدمة ضافية، بينت فيها ما آل إليه الكتاب من حذف واختصار وزيادة على أيدي المختصرين، أرجو من الله تعالى أن يسهِّل نشره قريباً.

وفيها يوم الأربعاء الثَّاني والعشرين من ذي الحِجَّة توفي الشيخُ بدر الدين المَرَاغي شيخ خانقاه الطَّاحون، وقع به سُلَّم من أعلاها إلى الوادي، وكان شيخاً حسناً صالحاً فقيهاً، تولَّى العقود مُدَّة والقضاء بوادي بردى، ثم انقطع في هذه الخانقاه في آخر عمره إلى أن توفي بها، رحمه الله، ورضي عنه.

ثم دخلت سنة خمسٍ وخمسين وست مئة

ففي أول ربيع الأول توفي الأمير نور الدِّين أبو الحسن المغربي الميورقي[١]، وكان له بيت عندنا بالمدرسة العادلية، ودفن بالجبل بمقبرة ابن يغمور ـ رحمه الله ـ وهو من أقارب الميورقي الملك المشهور ببلاد المغرب.

وفيها في ثامن ربيع الأول توفي الشيخ تقي الدِّين عبدُ الرحمن بن أبي الفَهْم اليَلْداني[٢] بقرية يلدا، ودُفِنَ بها، وكان شيخاً صالحاً، مشتغلاً بالحديث سماعاً وكتابةً وإسماعاً إلى أن توفي، وله نحوٌ من مئة سنة.

أخبرني أنه كان مراهقاً في سنة تسعٍ وستين وخمس مئة حين طهَّر نُور الدين ابن زَنْكي ـ رحمه الله ـ ولدَه[٣]، وأنه حَضَرَ الطُّهورَ ولِعْبَ الأمراء بالميدان من قريته مع الصِّبْيان.

وأخبرني أنه رأى النبيَّ ﷺ، وقال له: يا رسول الله، بالله ما أنا رجل جيد؟ فقال: بلى أنتَ رجلٌ جيِّد.

---

(١) له ترجمة في ذيل مرآة الزمان: ١/ ٨٤، عيون التواريخ: ٢٠/ ١١٩ ـ ١٢٠، النجوم الزاهرة: ٧/ ٥٩.

(٢) له ترجمة في ذيل مرآة الزمان: ١/ ٧٠، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٣١١ ـ ٣١٢، العبر للذهبي: ٥/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤، عيون التواريخ: ٢٠/ ١١٥، الوافي بالوفيات: ١٨/ ١٧٦ ـ ١٧٧، البداية والنهاية (وفيات ٦٥٥هـ)، النجوم الزاهرة: ٧/ ٥٩، الدارس: ١/ ٩٣، شذرات الذهب: ٥/ ٢٩٩.

(٣) انظر «كتاب الروضتين»: ٢/ ٣٠٥.